٢٨ ــ اصطياف

أما(١) الشعب فسيقضى فصل الصيف كما تعود أن يقضيه فى كل عام ، جادا فى العمل ، جاهدا فى احتمال الأثقال ، متكلفا ألوان العناء المرهق والشقاء المضنى ، لأنه محتاج إلى أن يعيش ، ولأن العيش فى هذه الأيام ليس قريب المتناول . وليس يكفى أن تمد إليه يدك لتظفر منه بما تريد ، فلا بد من أن تجد فى طلبه بياض اليوم ، ولا بد من أن تقضى فى تدبيره سواد الليل ، ولا بد من أن تزدرى الألم لتتقى الجوع ، ولا بد من أن تعرض جسمك كله لحرارة الشمس المحرقة ، ولا بد من أن تحمل نفسك أضعاف ما كنت تحتمل من الأثقال لتصل إلى بعض ما يجب أن تصل إليه من قوت نفسك وأهلك .

لا سبيل إذن إلى أن يفكر الشعب فى اتقاء الصيف ، ولا فى الفرار منه إلى ساحل البحر حيث النسيم العليل ، وحيث الاستمتاع بالراحة ، والتذوق للذات الحياة ، وحيث التخفف من أثقال العمل طوال السنة ، والاستعداد لاحتمال هذه الأثقال إذا أقبل الخريف . لن يفكر الشعب فى شىء من هذا لأنه لم يتعود أن يفكر فيه ، ولأن الحياة لم تعوده أن تمنحه من المهلة والفراغ وسعة ذات اليد ما يمكنه أن يفكر فيه . ولأن الحياة فى هذه الأيام تقتضيه أضعاف ما كانت تقتضيه من الجهد ، وتكلفه أضعاف ما كانت تكلفه من العناء ولا تعفيه بعد ذلك من ألم الجوع والحرمان .

وإذن فستمشى أقدام حافية على أرض ملتهبة حتى تدمى ، وستصلى وجوه كالحة وهج الشمس حتى تحترق ، وستخترق أشعة من نار الشمس ثيابا ممزقة مخرقة حتى تبلغ الأجسام فتعمل فيها عملا لا بشبهه إلا عمل السياط التى قد تمسها بالضر إذا كان التقصير فى أداء الضرائب ، وسيعود الرجال والنساء ، والشبان والشيب إلى بيوتهم آخر النهار حيث ينتظرهم أطفال جياع ، ومنهم من ظفر بالقليل ، ومنهم من لم يظفر بشىء ! وسيقنع الظافرون بقليل من الخبز وشىء

---

(١) ٢٨ ــ ٥ ــ ١٩٣٣ .

من البصل وما يشبه البصل ! وسيقنع المحرومون بالصبر على الجوع ، لعل نهار الغد أن يجزيهم من هذا الصبر خيرا .

وأما رئيس الوزراء فيصطاف مستشفيا فى باريس وفرسايل ، وسيتنقل من باريس وفرسايل إلى حيث يشير عليه الأطباء من مدن الجبل، أو مدن البحر أو مدن المحيط حيث العيشة الناعمة والحياة الباسمة ، حيث الطبيعة المبتهجة والصفو المقيم . ومن حول رئيس الوزارة جماعة ليسوا مرضى ، وليس بهم ما يشبه المرضى ولكنهم متصلون بالرئيس ، يهونون عليه حياته الهينة ، ويسهلون عليه عيشة السهل ، ويخففون عليه عبئه الخفيف ، ويريحونه حتى من الراحة ، ويسلونه حتى من الفراغ !!

وأما الوزراء فسيدعون دواوينهم الفخمة المترفة ، وبيوتهم الجميلة الوثيرة ، لأن القيظ فيها شديد ، ولأن الصيف فيها مرهق للعقول ، مضن للأجسام ، وسينتقلون إلى الإسكندرية حيث البحر وساحله الجميل ، وهواؤه الطلق وما يضطرب قريبا من أمواجه من أنواع اللذات والسرور ، وصنوف البهجة والحبور إذا أشرق النهار وأظلم الليل . وسينتقل معهم جماعة من الموظفين يريحونهم من راحتهم ، ويسرون لهم أعمالهم اليسيرة ، ويتيحون لهم الاستمتاع بهذه الحياة الجميلة ، حياة الصيف فى الإسكندرية ، وسينتقل مع الوزراء والموظفين جماعة من الخدم والأتباع يهيئون لأولئك وهؤلاء ما يحتاجون إليه ليذوقوا هذه العيشة الراضية ولينعم بالهم أشهرا من سنة بعد أن ضاقوا بحياة الجد والعمل فى القاهرة .

وستنفق الدولة على أولئك وهؤلاء جميعا . تنفق على المصطافين فى الإسكندرية ، والدولة ملزمة أن تنفق على أولئك وهؤلاء لأنهم وزراؤها وموظفوها . ومتى عرفت الدولة تقصر فى ترفيه الوزراء والموظفين وخدام الوزراء والموظفين ؟!

ولكن شيئا واحدا لن يفكر فيه أحد ، ولن يلتفت إليه أحد ، ولن يقف عنده أحد ، ولن يرضى عنا هؤلاء الوزراء والموظفون وأتباعهم لأننا نفكر فيه الآن ، ونريد أن نذكرهم به ونلفتهم إليه ، لعله أن يثير بينهم وبين ضمائرهم شيئا من الحديث الذى لا يخلو من عظة وعبرة ، والذى قد يثير عاطفة الحياء أحيانا !!

هذا الشيء هو أن الأموال التى ستنفقها عليهم الدولة لينعموا بلذة البحر وهوائه الطلق ونسيمه العليل إنما تجبى من أولئك الذين ستحرقهم الشمس من غير رحمة ، وستدمى أقدامهم على أرض قد ألهبها القيظ ، وستكلح وجوههم بهذا الوهج الذى يأخذها من كل مكان ، وستداعبهم هذه الأشعة الملتهبة مخترقة إلى أجسامهم المتجمدة — ثيابهم الممزقة البالية . فمن الحق على الوزراء والموظفين إذا انغمسوا فى الماء مع الصباح أو مع المساء ، وإذا جلسوا إلى مكاتبهم فى الدواوين ، وأقبل عليهم هذا النسيم الخفيف فداعب وجوههم ، ونفذ إلى أجسامهم فبعث فيها لذة خفيفة تدعو إلى النشاط ، أو جلسوا إلى موائدهم فى الأندية والقهوات ينعمون بما يحمل إليهم من أنواع الطعام والشراب ، ونظروا إلى البحر والشمس تغمره بأشعتها أول النهار ، أو تحسر عنه هذه الأشعة عند الأصيل ، والقمر يداعبه إذا تقدم الليل . وإذا رأوا رقص الراقصين والراقصات ، وسمعوا عزف العازفين والعازفات ، وملأوا عيونهم بهذه الصور الجميلة الخلابة التى تنشط مع المساء على ساحل البحر فتملأ الجو فتنة والنفوس إضطرابا ، وتثير فى القلوب نارا ، منها البرىء ومنها الآثم !

من الحق عليهم إذا لهوا بهذا كله ، ووجدوا لذة هذا كله أن يذكروا أولئك المساكين الذين تدمى أقدامهم وتحترق وجوههم ، ويتنفسون هواء مزاجه اللهب ، يعودون بعد طول الجهد وشدة العناء ، ولعل كثيرا منهم لا يجدون ما يطعمون !

نعم من الحق عليهم أن يذكروا هؤلاء فقد تنفع هذه الذكرى ، وقد تثير فى نفوسهم شيئا من الحزن للبائسين ، والرحمة للأشقياء ، والعطف على المكروبين . وقد تدفعهم إلى أن يعرفوا لهؤلاء الناس بعض حقهم ، ويذكروا لهم بعض فضلهم ، ويأخذوا أنفسهم ، لا بأن يردوا عليهم أموالهم ، ولا بأن يشاركوهم فى آلامهم ، ولا بأن يحملوا عنهم بعض أثقالهم ، بل أن يعنوا بمصالحهم وينظروا إليها فى رعاية وعناية ، لعل ذلك أن يشعرهم بأنهم لم يتركوا

نهبا للضر وسوء الحال ، ولكن لهم وزراء وموظفين يرثون لهم بعض الرثاء ، ويؤثرونهم ببعض العطف ، وينظرون إليهم نظرة لا تخلو من إشفاق !!

أين نحن وفى أى عصر نعيش ؟ نحن فى مصر التى هى جزء من أوربا ، وإذن ففى أى بلد من بلاد أوربا يترك الوزراء عواصمهم ليصطافوا على حساب الدولة ؟! نحن فى القرن العشرين الذى ثبتت فيه شخصية الشعوب ، وجعلت تزول فيه الفروق بين الطبقات ، وخضعت فيه أعمال الحكومات لأشد ألوان المراقبة وأعسر ضروب الحساب ؟ وإذن فأين الاعتراف بشخصية الشعب الذى سيصلى العذاب فى الصيف ليستمتع وزراؤه وموظفوه على حسابه بفنون النعيم ؟

وفيم ينتقل الوزراء والموظفون إلى الإسكندرية على حساب الدولة ؟ هم بين اثنتين : إما أن يكونوا قادرين على العمل وإذن فليبقوا فى القاهرة . وإما أن يكونوا عاجزين عن العمل وإذن فليستقيلوا أو ليستريحوا بالإجازات على حسابهم هم ، لا على حساب الشعب البائس المحروم .

سيقولون إنما ينتقل الوزراء ليكونوا قريبا من جلالة الملك ، وإنما ينتقل الموظفون ليكونوا قريبا من سادتهم الوزراء والموظفين ، ولكن الملوك ورؤساء الجمهوريات يصطافون فى أوربا ، ويبقى الوزراء فى العواصم حتى إذا احتاج إليهم رؤساء الدول ، سافروا إلى حيث يلقونهم فى مصايفهم ، ثم يعودون بعد ذلك إلى حيث يعملون .

وليست القاهرة بعيدة عن الإسكندرية حيث يصطاف جلالة الملك ، فمن أيسر الأشياء وأهونها أن ينتقل الوزراء إلى حيث يتشرفون بالمثول بين يدى جلالته ليتلقوا أوامره السامية وليرفعوا إلى سدته العلية ما يريدون رفعه من الأعمال .

ليست مصلحة الدولة إذن هى التى تقتضى انتقال الحكومة إلى الإسكندرية ، وإنما هو الترفيه على رؤساء الحكومة من الوزراء والموظفين . وقد كان ذلك ميسورا على ثقله ومجانبته للحق قبل أن تشتد هذه الأزمة المنكرة . فأما الآن فهو أمر أقل ما يوصف به أنه ليس إلى الدفاع عنه من سبيل .

زعموا أن رئيس الوزراء بالنيابة فكر فى إلغاء رحلة الصيف هذه ، ثم زعموا أنه عدل عن هذا التفكير ، فليفكر رئيس الوزراء مرة أخرى ، وليفكر معه الوزراء ، وليفكر معهم الموظفون ، وليفكر معهم البرلمان فى أن هذه الأيام ليست أيام ترف ولا سرف ، وإنما هى أيام احتمال وحرمان ، وليست حياتهم التى يحيونها فى القاهرة بالسيئة ولا الرديئة ، وإنما هى حياة يحسدهم عليها كثير من وزراء الدول الكبرى .

فليبقوا إذن فى القاهرة ، فإن ذلك أقل ما يجب عليهم من إظهار تضامنهم مع الناس ومشاركتهم ولو من بعيد فيما يلقون من مكروه .